الدكتور محمد البهي

المجتمع الإسلامي وأهدافه

الدكتور محمد البهي

المجتمع الإسلامي وأهدافه

المجتمع الاسلامى وأهدافه

المجتمع :

ليس أى مجتمع إنسانى هو اجتماع عدد من الناس ، كيفما كان عددهم ، فى رقعة واحدة . وإنما يكون المجتمع الإنسانى حيث يكون هناك هدف للذين وجدوا فى بقعة واحدة من بقاع الأرض . ولذا ليس للبدائيين مجتمع ، وهم فحسب مجموعة من الناس . ويظلون مجموعة لا تربطهم رابطة ما سوى أن يسعى كل واحد منهم لأن يعيش ، أى ليأكل ، ويشرب ، ويسلك سلوكا جنسياً ، حتى إذا اجتمعوا على هدف أصبحوا مجتمعاً من المجتمعات الإنسانية .

وهدف أى مجتمع إنسانى يسمو فوق رغبات الأفراد كأفراد ، ولكنه يتصل بصالحهم جميعاً من حيث إنهم يكونون لبنات المجتمع .

قد تكون « السيادة » مثلا هدفا لمجتمع ، وقد يكون « التحرر » من الخضوع لسيادة الغير هدفا لمجتمع آخر . وبما أن الإنسان فى اشتباكه مع فرد آخر قد يناضله من أجل أن يسود عليه ، وقد يناضله من أجل أن يتخلص من سيادته ، فكذلك المجتمعات الإنسانية فى قديمها وحديثها تتكون أو تعى ذاتها كمجتمعات إما من أجل السيادة والغلبة ، أو من

أجل التخلص من سيادة الغير وسطوته . إذ أن الأهداف التي يسعى إليها الفرد في الحياة الخاصة الضيقة مع غيره هي ذات الأهداف التي يسعى إليها المجتمع في حياته العامة كمجتمع . والفرد تكمن فيه قوى عديدة ، أو غرائز كثيرة ، ولكنها ترجع في النهاية إلى المحافظة على كيان وجوده وذلك إما ببقائه ذا قوة مرهوب الجانب ، أو ذا نضال وكفاح ضد من يستذله أو يستضعفه .

المجتمع الإسلامي :

والمجتمع الإسلامي إنما وجد لهدف هو : أن يتحرر كمجتمع وأن يسود . أو بعبارة أخرى ليتخلص من ضعف ويكون ذا قوة وشوكة . والمجتمع الإسلامي ليس مجتمعاً ذا رقعة معينة ، ولا ذا جنس إنساني واحد . هو مجتمع البشرية كلها . ومن ثم قام ووجد ليحرر البشرية من رق الخرافة والكهانة ، ومن الاعتقاد في « الصدفة » و « الحظ » ، والاعتقاد في الأصنام والأوثان ، ومن الشرك في العبادة والإيمان . وقام ووجد من جانب آخر ليبقى متحرراً من ذلك كله ، وليبقى ذا سيادة وقوة : ذا سيادة على الظلم والاستعباد ، ذا سيادة على ارتكاب الفواحش والموبقات ، ذا سيادة بأداء الواجب ، وذا قوة في النفس والضمير ، وبفعل الخير وصنع ما يريح ويسعد النفس البشرية كلها .

والمجتمع الإسلامي إذن هو مجتمع تحرري ؛ مجتمع خلقي .

١ — الإيمان بوحدانية الله :

ولكى تتحرر الإنسانية من صور الضعف والاستذلال فى جانب الاعتقاد والتوجيه أوجب الإسلام أن تكون عبادة الإنسان فى المجتمع الإسلامى ـ الذى سيكون المجتمع الإنسانى التحررى ـ لله وله وحده من غير أن يكون له شريك فيها. والله الذى يجب أن يعبد وحده هو الكمال المطلق فى الوجود : « الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى». والأسماء الحسنى التى لله سبحانه وتعالى هى صفات الكمال التى يستحق من أجلها أن يكون رباً ومعبوداً : « ذلكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » . فهو واحد مطلق فى أنه خالق كل شىء ، وهو واحد مطلق فى أنه لا يحد بالبصر . هو فوق كل الكائنات المحسة جميعها .

والإيمان بالله وحده هنا هو النقطة الفاصلة فى حياة الإنسانية : بين ضعف فى الاعتقاد والتصور يجب أن يمضى إلى غير رجعة ، وقوة مترقبة فى الانطلاق نحو المثل العليا . وهو القيم الكاملة . والسعى نحو الاقتراب منها يجب أن يتحقق . إذ بالإيمان بالله وحده ، أى بالكمال المطلق فى الوجود يتخلص الإنسان من أن يسخر نفسه فى ارتباطه فى العبادة بالكائن المحس ، يتخلص من الرق لمن هو دونه فى الخلق أو لمن هو مثله . وكرامة الإنسان تقتضى أن يكون فى عبادته متوجها إلى من هو فوقه . وليس هناك فوق الموجودات جميعها إلا الله الذى « ليس كمثله شىء » .

عبد الإنسان فى القديم الحيوان ، وعبد الصنم من الأحجار ، وعبد الإنسان . « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون » .

عبد الإنسان من دون الله ما أحصيناه وما لم نحصه ، وربط مصيره فى الحياة بتلك الكائنات الأرضية التى لا تسمع الدعاء وإن سمعته فلا تجيبه لعجز عن الفهم أو عن التصرف .

جاءت رسالة الرسول عليه الصلاة والسلام بالدعوة إلى الإيمان بالله وحده ، وقد كانت هى دعوة الرسل السابقين قبل تحريفها من الدعاة إليها . « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه : أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » ـ جاءت بهذه الدعوه لتعيد إلى الإنسان قيمته ، لتصحح له وضعه فى الحياة والوجود : « وهو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » . ألم تر أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » . ووضعه فى الحياة هو الوضع الذى هيء لصاحبه ما فى الأرض جميعا ، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض من جبال وأنهار ومن بر وبحر وجو ، وأحيط بما فى ذلك كله من نعم وقف عليها أو هو فى سبيل الوقوف عليها مما لم تتكشف له بعد « ظاهرة وباطنة » .

وكان وضعه فى الحياة والوجود هذا الوضع لأنه المخلوق الذى أعد

بطبيعته للانتفاع بالوجود « الذى أحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ،قليلا ماتشكرون». فبجانب الحياة (ونفخ فيه من روحه) ، وهى الطاقة على الحركة والسعى التى زودت بها طبيعة الإنسان كأى كائن حى ـ كان السمع والبصر وهما أقوى وسائل الحس فى الإدراك للمشاهد ، وكان الفؤاد وهو شعار القلب مركز الإيمان والاعتقاد ، وشعار العقل مصدر الإدراك والتصور لما غاب عن الحس والشاهد . وبالسمع والبصر والفؤاد تميز الإنسان . ومن أجل تميزه كان له هذا الوضع الخاص فى حياة الوجود كله الذى أرادت رسالة الإسلام ـ عن طريق الدعوة إلى الإيمان بالله وحده ـ أن تعيد إليه الوعى والشعور به .

فالدعوة إلى الإيمان بالله وحده إذن تنطوى على تعريف الإنسان بمنزلته ووضعه وقيمته فى الحياة . ومن الكرامة للإنسان ، كمخلوق متميز على ما عداه من المخلوقات ، أن يعرف وضعه الصحيح وقيمته الذاتية . ومن المهانة له ، والسخرية منه ، والاستخفاف به ، أن يبقى فى دائرة ما انحدر إليه فى الاعتقاد من عبادة غير الله ممن هو دونه أو مثله فى الخلق .

وهى إذن دعوة إلى التحرير والتحرر : دعوة إلى « العزة والكرامة» دعوة إلى الانطلاق فى الوجود ، والكشف عن خفيه قبل واضحه لأنه

سخر له من خالق الكون كله ، وهو الله ، ما فى السموات من أجواء وعوالم ، وما فى الأرض باطنها وظاهرها .

والمجتمع المؤمن بالله وحده هو المجتمع الإنسانى المتحرر ، هو المجتمع الذى فصل فى وعى ويقظة بين الإنسان ككائن مخلوق متميز وبين كائنات أخرى يعدها مسخرة له . والمجتمع الإسلامى هو المجتمع المؤمن بالله وحده .

وإذن هدف المجتمع الإسلامى ـ لأنه المجتمع الذى آمن بالله وحده ـ هو التحرر مما يحط بكرامة الإنسان ، ومما يقيده عن الانطلاق والسعى فى الحياة ، ومما يعوقه عن أن يكون صاحب سيادة فى أرض الله وسمائه .

والمجتمع الإسلامى بإيمانه بالله هو مجتمع إنسانى ويظل مجتمعاً إنسانياً . ليس مجتمعاً « دينيا » بمعنى أن القوامة فيه لطبقة تعلو عن الناس الباقين وتقل درجة عن الإله ، وهى الطبقة التى يدعى لها أن الأمر قد وكل إليها من الإله ، وأنها بناء على ذلك تتصرف بمشيئته وحكمها لذلك حكم له صفة القداسة وطابع الإلزام من غير مراجعة . كما كان الشأن فى القرون الوسطى أيام حكومة الكنيسة الرومانية فى القطاع الأوربى .

لا ! الإيمان بالله لا يمنح المجتمع الإسلامى مثل هذه السلطة ; بل على النقيض كما ذكرنا يدفع أفراده إلى التحرر مما يعوق عن العمل والتفكير

والسعى والتقويم ، ووجود سلطة لها طابع العصمة فيما ترى وتحكم ، وطابع النيابة عن الله فيما تتصرف وتوجه ، من شأنه أن يعوق عن العمل والتفكير والسعى ، لأنه سيصبح عمل الإنسان وتفكيره وسعيه مرتبطا بما ترى هذه السلطة ، وهى سلطة مهما قيل فيها يمارسها فريق من الناس قد تكون لهم حزبية وهوى وغرض ، وعندئذ يصبح هوى الإنسان وغرضه وحزبيته ـ دون الصالح العام ـ قانونا لا يراجع وأمرا لا تناقش قداسته ، وما الشرك بالله إلا صورة من صور هذه السلطة ، ومكان الشرك فى التعاليم الإسلامية يحدده مثل هذه الآية الكريمة : « أن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا » .

وإذن الإيمان بالله وحده الذى يدعو إليه الإسلام ، ويصر عليه ، يتعارض مع قيام سلطة دينية إلهية على هذا النحو . ومن هنا من يتحدث عن دين وحده ودولة وحدها فى الإسلام أو فى المجتمع الإسلامى يتحدث عن شىء غريب عن طبيعة الإسلام . وهو بحديثه هذا يحكى تقليداً للكنيسة الرومانية الكاثوليكية فى القرون الوسطى عند ما كانت تسوس المجتمع المسيحى الأوروبى باسم الإله ، ومنحت رجالها العصمة فى القول والفعل ، وفرضت الطاعة المقدسة على من عداهم فى هذا المجتمع لهؤلاء النواب عن الإله والمشاركين له فى العصمة وهم رجال الكنيسة .

الإسلام يعرف فحسب مجتمعا إنسانيا يؤمن بالله وحده ، وبالرسالة

التى نزلت على صاحب الدعوة الإسلامية محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .

(٢) الخلقية الدينية أو الضمير الدينى

وإذا كانت الوحدة فى الإيمان بالله هى هدف المجتمع الإسلامى وفى الوقت نفسه هى العامل الأساسى فى تكوينه - فإن الخلقية الدينية أو الضمير الدينى عامل فى بقاء هذا المجتمع ، وعامل فى تماسكه وتعاونه .

والخلقية الدينية هى استطاعة نفسية تتكون عند المؤمن بالله يصدر عنها تصرفات لها طابع الانسجام مع تعاليم الرسالة التى جاء بها صاحب الدعوة عليه الصلاة والسلام . وهى إذن كما تقوم على وحدة الإيمان بالله تقوم أيضاً على الإيمان برسالة الرسول وما جاء فيها . وهناك عامل آخر فى تكوينها يضاف إلى هذين العاملين وهو الإيمان بالجزاء فى الآخرة . والإيمان بالآخرة وما يتم فيها من جزاء يبعث الحيوية واليقظة باستمرار فى أن تؤدى الخلقية الدينية وظيفتها من العمل طبق ما آمن به الإنسان . وفروع الإيمان الثلاثة : الإيمان بالله ، والإيمان بالرسول وبما أنزل عليه من وحى هو مضمون رسالته ، والإيمان باليوم الآخر وما يقع فيه من جزاء - تذكرها فاتحة سورة البقرة فى قول الله تعالى : « الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين

يؤمنون بالغيب (الله) ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » . فوصف الذين يؤمنون بهذه الأنواع الثلاثة بأنهم هم المتقون ، وبأنهم على هدى من ربهم ، وبأنهم هم المفلحون الناجحون . فالإيمان بالغيب فى مقدمته الإيمان بالله ، لأنه لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير . والإيمان بما أنزل هو الإيمان بالوحى والرسالة الإلهية ، والمعرفة اليقينية بالآخرة هى الإيمان بها فى صورة مؤكدة . وفى سورة النساء يعبر القرآن الكريم عن هذه الفروع الثلاثة من الإيمان تعبيراً آخر فيطلب الإيمان بها ثم يصف من يكفر بها بأنه قد ضل ضلالا بعيداً : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذى نزل على رسوله ، والكتاب الذى أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً » .

وهذه الخلقية الدينية التى تقوم على عناصر الإيمان الثلاثة هى التى تدفع الإنسان إلى حسن السلوك ، وإلى الاستقامة ، وإلى التعاون والتآخى بين الأفراد . ودفعها إلى ذلك دفع ذاتى لا يحتاج إلى محرك خارجى ولا إلى رقابة خارجية . إذ السلطان عليه هو الاعتقاد الذى يحمله المؤمن بين جنبيه . والفرق بين المؤمن الذى يحمل فى نفسه القوة الدافعة إلى العمل المستقيم والتعاون مع الغير ، وبين القانون الذى يضعه المجتمع ويفرضه بقوة الحراسة وهى القوة التنفيذية ـ الفرق

هو أن سلطان القانون وما يصحبه من قوة تنفيذية خارج عن الإنسان ومفروض عليه . والإنسان فى المجتمع المدنى الحديث ، وهو المجتمع صاحب القانون الوضعى وصاحب السلطة التنفيذية ، يعمل بدفع هذه القوة الخارجة عنه . ولو تهاون هذا المجتمع فى تطبيق القانون يوما ما ، أو خفت رقابة السلطة التنفيذية ، فإن الفرد بدوره سيتهاون فى أداء الواجب ، وهو ما يحتم عليه القانون أداءه وتفرضه عليه السلطة التنفيذية .

وإذن فالمجتمع الذى لا يعتمد على قوة ذاتية دافعة فى أفراده ـ كالخلقية الدينية ـ يتوقف العمل الجماعى فيه على قوة السلطة التنفيذية : وعلى دقة مراقبتها لتنفيذ القانون الذى وضع لهذا المجتمع . والدولة الحديثة ، تتحمل عبئا ثقيلا فى سبيل الحصول على مثل هذه القوة التنفيذية وعلى مثل هذه الدقة فى مراقبتها .

وفرد المجتمع الحديث يشعر دائما وأبدا بأنه مسوق ومدفوع بقوة القانون ، ويشعر كذلك بأن حريته محدودة واختياره محدود ، لأنه شبه مجبر على ما يفعل ويؤدى من عمل . بينما الفرد فى المجتمع صاحب الخلقية الدينية ـ كالمجتمع الإسلامى فى نظام تكوينه ـ لا يشعر بمثل هذا الضيق النفسى ، بل يشعر بأنه هو الذى يدفع نفسه وأنه لذلك حر فيما يندفع إليه . والحرية الفردية على هذا النحو فى المجتمع صاحب الخلقية الدينية عامل فى البناء ، وعامل فى اتقان العمل : لأن الحرية فى العمل والدفع

الذاتى نحو الفعل تصحبهما دائما رغبة وبجانب الرغبة متعة كذلك .
ولذلك حاول بعض الأخلاقيين المثاليين فى المجتمع الأوروبى فى القرن الثامن عشر أن يضع خلقية ذاتية تقوم على فكرة : « أداء الواجب لذات الواجب » . وشاعت هذه الخلقية المثالية فى الشعب الألمانى على الخصوص، وعرفت هذه الفكرة بفكرة «كانت» أو بالواجب الخلقى .
ومع أنها خلقية دافعة نحو العمل من ذات الإنسان دون رقابة القانون الوضعى وما يصحبه من قوة تنفيذية ـ فإنها تفترق عن الخلقية الدينية التى يريدها الإسلام للمجتمع الإسلامى ، والتى هى أساس لتماسك المجتمع الإسلامى وتعاون أفراده . لأنه مهما كان الأمر فلا يغيب عن أذهاننا أن أساس القوة الخلقية الدينية هو الاعتقاد بالله ، وأن أساس الخلقية المثالية هو تصور عمل الواجب من الإنسان للإنسانية . وشتان بين قوة تعتمد على الاعتقاد بالله وأخرى تقوم على تصور الإنسان للإنسانية .
فالإعتقاد بالله من شأنه أن يبقى ، أو أن يطول أجله على الأقل ، بينما تصورات الإنسان مهما كانت تخضع للعوامل التى يتأثر بها الإنسان .
ويسهل عندئذ أن يتغير تصور الإنسان من لون إلى لون آخر .

هذه الخلقية الدينية التى تقوم على العناصر الثلاثة للإيمان : الإيمان بوحدة الله ، وبرسالة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وباليوم الآخر ، هى إذن قوة مثمرة فى أن يحسن الإنسان فى سلوكه ، وأن يحسن فى تعامله مع غيره . وإذا أحسن الإنسان فى سلوكه وفى تعامله مع غيره لم يكن التعاون بين الأفراد أمرا ممكنا فحسب وإنما كان نتيجة حتمية بينهم .

بل سيؤدى إلى الشعور بالأخوة ، وإيجاد الألفة القائمة على المحبة . وهنا يكون التساند والتماسك .

مضمون الرسالة الإلهية :

وبما أن الإيمان بوحدة الله الذى هو عنصر فى تكوين الخلقية الدينية هو فى واقع الأمر إيمان بالتحرر من الخرافة ، والاعتقادات الباطلة ، والذلة ، والمهانة ، وإيمان بالمستوى الرفيع فى الإنسانية ، وهو مستوى العزة والكرامة - فالإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام ليس فى واقع الأمر إيمانا بشخصه كإنسان . وإنما هو إيمان به كصاحب رسالة ، وكخلقة فى تبليغ وحى الله إلى الناس . وإذا كان مضمون هذه الرسالة هو تخطيطا لسلوك الفرد ، ولحدود التعامل بين الفرد والفرد فى المجتمع ، فالإيمان بالرسول عندئذ وبرسالته هو اتباع لتنفيذ مضمون هذه الرسالة ، أى لتنفيذ حدود الاستقامة فى السلوك وخطوط المعاملة بين الأفراد .

وإذا رجعنا إلى مضمون هذه الرسالة وما رسمته من حدود وتخطيطات فسنجد ان ما صنعته فى ذلك يهدف إلى التعادل والتوازن بين ثنائية الفرد وبين الفرد والفرد فى المجتمع . إذ الفرد (وإن كان فى مظهره وحدة واحدة) فى واقع أمره يتكون من جانبين متقابلين أو متنازعين : يتكون من الحكمة التى توحى إليه بالاعتدال ، ومن الهوى الذى يوحى إليه بالتطرف والخروج عن حد الاعتدال ، يتكون

من عقل وجسم ، وكل منهما له اتجاهاته وميوله ، وهنا نجد رسالة الإسلام فى هذه الدائرة ، وهى دائرة الفرد ، لم تنكر اتجاها من هذين الاتجاهين . وأن ما حددته فى ذلك شأنه يكفل التوازن بينهما : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض . إن الله لا يحب المفسدين » . فهذه الآية نرى منها أن الإسلام يقر طبيعة الإنسان على أنها طبيعة مادية روحية ، على أنها طبيعة واقعية مثالية . فبينما لا يحول بينه وبين الاستمتاع بالدنيا ، وهذا ما يتصل بالجانب المادى . إذ به يطلب من الإنسان أن يكون فى استمتاعه بهذا الجانب ، وفى تحصيله الدنيا ، قاصدا وجه الله . ومعنى وجه الله فى ذلك أنه لا ينحرف بالدنيا إلى الفساد والاعوجاج ، أى لا يتخذ مما يحصل عليه من جاه الدنيا وما لها وسيلة لاثارة العبث والفساد فى المجتمع ، وهذا معنى قول الله : « ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين » .

أما فى دائرة المجتمع ، أى فى دائرة علاقة الفرد بالفرد فان الإسلام وضع نظاما للاسرة ، وهى أقل وحدة من وحدات المجتمع ، وضع نظاما للتزاوج وللزوجية ، أى لإشراك فردين فى حياة واحدة لغاية واحدة ، ونظامه فى هذا لا يقضى على فردية الاثنين ، ولا يطلب صهر أحدهما فى الآخر ، لأنه يعلم أن الخصائص الفردية ، وهى ما لكل فرد على حدة ، باقية لا يمكن أن تفنى ولا أن تذوب فى خصائص فرد آخر . وكل ما طلبه الإسلام فى هذا الشأن هو أن يكون هناك انسجام وتعادل

بين الطرفين ، لا يطغى أحدهما على الآخر ، ولا يستهين أحدهما بالآخر ، ولا يذل أحدهما الآخر ، وإنما يسيران جنبا إلى جنب كما تسير الأجزاء المتناسقة فى وحدة واحدة . ومن هنا جعل لكل من الطرفين فى الزوجية حقوقا وواجبات . « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة» . فالمماثلة فى الواجبات والحقوق إذن قائمة بين الاثنين . أما هذه الدرجة التى تذكرها الآية وتجعلها خصيصة أو ميزة فى جانب الرجل فليست إلا تلك القوامة التى تشير إليها الآية الأخرى : «الرجال قوامون على النساء » ، وهذه القوامة ليست عبارة عن سلطة وسيادة ، وإنما هى قيادة وتوجيه ، ولم يجعلها الإسلام فى جانب الرجل إلا لأن الرجل بحكم تكوينه فى طبيعته ذو مسئولية فى الحياة الخارجية لا تستطيع المرأة بحكم طبيعتها أن تقوم بها كقاعدة وان أمكنها القيام بها على سبيل الاستثناء . إذ طبيعة المرأة بحكم أنها تحمل وتلد هى فى رعاية حملها ، وفى جانب ولدها ، وهى من أجل دلك لا تتفرغ للحياة الخارجية كما يتفرغ لها الرجل بحكم طبيعته . لذلك كان السعى لحفظ حياة الاسرة وصيانتها أمرا يجب أن يتكفل به الرجل ويسأل عنه . وإذ كان وضعه على هذا النحو فمن غير ما شك يجب أن تكون له قيادة ، وان يكون له توجيه . والحدود الأخرى التى وضعها الإسلام فى معاملة الرجل للمرأة تمنعه من أن يستغل هذه القوامة ، أو يسىء إلى المرأة : « الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح بإحسان » . فطلب الإسلام الإحسان فى الابقاء على الزوجية ، كما طلب هذا الإحسان نفسه فيما لو

أراد الرجل أن يفارق امرأته . والمؤمن صاحب الخلقية الدينية — بحكم أنه مؤمن وصاحب خلقية دينية — لا يكون إلا محسنا ، لا يستغل ولا يسيء استخدام ما وكل إليه من قيادة وتوجيه ، وإذن قوامة الرجل هى محض توجيه وإخلاص فيه لصالحهما معا .

ولم يشأ الإسـلام — لأنه يبقى على فردية الفرد ولا يدع أحد الاثنين ينصهر فى الآخر — أن يجعل الزوج بحكم هذه القوامة مستغلا لزوجته فيما تعطى أو فيما تملك أو فيما تعتقد وترى . شيء واحد يجب أن تحرص عليه المرأة وهو أن لا تسيء عن طريق ما تملك أو تعتقد وترى إلى زوجها ، ألا تقصر فى أداء ما عليها من واجبات كما أنها لا تتوانى فى المطالبة بما لها من حقوق .

وإذا تجاوزنا دائرة الزوجية إلى أسرة القرابة فاننا نجد أن الإسلام يطلب كذلك أن يكون هناك توازن وتعادل بين أفراد أسرة القرابة كما يجب أن يكون هناك توازن وتعادل بين أسرة الزوجية . يقول الله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى . . . » . « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا . إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ، ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما » . « ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا » . فطلب الإحسان فى معاملة ذى القربى ، وأكد هنا هـذا الطلب فى معاملة الوالدين خاصة كما طلب الإحسان فى معاملة أحد الزوجين للآخر ، وهذا ضرب من الإحسان يمثل أرقى وأرفع مستوى إنسانى فى المعاملة.

ولا شك أن ما يتحمله الآباء فى سبيل الأبناء يوحى بأنه ينبغى أن يكون موقف الأبناء منهم على ما يطلبه القرآن الكريم .

أما الآباء فى موقفهم من الأبناء فلم يوصهم الإسلام هنا على نحو ما أوصى الأبناء قبل الآباء لأن الإسلام يعتمد على العلاقة الطبيعية بين الجانبين وهى علاقة قوية من جانب الآباء نحو الأبناء ، ولا تماثلها فى القوة علاقة الأبناء بآبائهم . وكل ما أوصى به الإسلام هنا هو ألا يفتتن الآباء بالأبناء . يقول الله تعالى : (إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم . فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وانفقوا خيراً لأنفسكم) .

وهكذا إن تركنا أسرة الزوجية وأسرة القرابة الخاصة إلى القرابة البعيدة نجد الإسلام ينصح بالتعاطف والتراحم ، كما ينصح بأن يشرك الغنى الفقير فى ماله . يقول الله تعالى « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب ، والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين . الآية »

وحتى فى من يتصل بالأسرة ، سواء كانت أسرة الزواج أو أسرة القرابة ، نجد الإسلام يطلب هذه الرعاية حتى لا يكون هناك حقد ولا يكون هناك بغضاء . يقول الرسول عليه الصلاة والسلام فى حق الخدم : « إخوانكم خولكم . أطعموهم مما تطعمون ، وألبسوهم مما تلبسون ، ولا تعذبوا عباد الله » .

وإذا كانت نظرة الإسلام إلى الأسرة فى صورها المختلفة هى هذه النظرة التى تقوم على طلب التعادل والتوازن بين أفرادها ـ فإن المجتمع الكبير، وهو المجتمع الإسلامى، مطالب أيضا من قبل الإسلام بأن يكون فيه التوازن والتعادل والتواد .

ولم يشأ الإسلام أن يكون هذا التعادل أو التوازن منبثقا من دفع خارجى ـ كما ذكرنا ـ وإنما أراد أن يكون مصدره هو ذات الفرد وذات المجتمع من داخله ومن نفسه . ومن هنا حث الإسلام كثيراً على « الإحسان » . وليس الإحسان هو التفضل وإعطاء الفضل من مال أو غيره . وإنما الإحسان هو التصرف طبقا لمستوى إنسانى مهذب . الإحسان مشتق من : أحسن ضد أساء . أحسن فى التصرف ، أحسن فى العطاء ، أحسن فى العمل ، أحسن فى العلاقة ، أحسن فى رعاية الروابط ، أحسن فى الإقناع ، أحسن فى الستر على الأعراض ، أحسن فى رعاية الحرمات وحفظها . كل ذلك إحسان يطلبه الإسلام ، وهذا الإحسان لا يتم مطلقا إلا عن خلقية دينية ، إلا عن ضمير خلقى ، ولا يتم عن دفع القانون الوضعى الإنسانى ، ولا عن رقابة السلطة التنفيذية التى تصاحبه وتقترن به .

ثم إن الرسالة الإلهيةالتى جاء بها الرسول عليه الصلاة والسلام والتى يعد الإيمان بها عنصرا من عناصر الخلقية الدينية أوالضمير الدينى ـ لها مرونة خاصة تتمثل فى مبدأ الاجتهاد ، ذلك المبدأ الذى تشير إليه الآية الكريمة : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول

وأولى الأمر منكم . فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلا » . فالمراد بأولى الأمر هنا هم أولوا الرأى وأصحاب الاجتهاد . ويقصد القرآن برد النزاع إلى الله ورسوله رده إلى كتاب الله وسنة رسوله وما يفهمه المسلمون منهما .

وهذا المبدأ يعطى الشريعة الإسلامية أو الرسالة الإسلامية فيما عدا أصول الاعتقاد حيوية وإمكانيات للملاءمة بين إيمان المؤمنين بهذه الرسالة وظروف الحياة التى يعيشون فيها ومقتضياتها . وبهذا يمكن للمسلمين أن يعيشوا دائما فى حياة متطورة وفى ظل الإيمان الإسلامى معاً . وهذه ميزة يستطيع المجتمع الإسلامى عن طريقها أن يعيش فى كل وقت دون أن يتعارض مع مبادىء الإسلام العامة أو يصطدم مع طبيعة الحياة التى يعيش فيها .

وبجانب هذا المبدأ الذى ترعاه رسالة الرسول عليه الصلاة والسلام مبدأ آخر يتطلبه تماسك المجتمع نفسه ، أى مجتمع . وهذا المبدأ هو إلغاء اعتبار العنصرية . فلا القبلية ولا اللون بحاجز عن أن يكون المسلم أخا للمسلم ومتعاوناً معه « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . فالقرآن الكريم يؤكد أن المسلمين مع اختلافهم فى الجنس ، أو فى اللون ، أمة واحدة ، كما يؤكد أن الاختلاف فى ذلك لا يدعو إلى الفرقة أو الانفصال ، بل على العكس من ذلك هو سبب للتعارف والتآلف . وهذا ما يقصده الإسلام من تعاليمه .

على أنه بجانب هذا وذاك يوجد مبدأ آخر في الرسالة الإسلامية . هو مبدأ يتصل بتماسك المجتمع الإسلامى واستقلاله وعدم ذوبانه وانصهاره فى أى مجتمع آخر . هذا المبدأ هو : القومية الإسلامية . وهى ما يمثله مثل هذه الآيات الكريمة : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » . « وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا » . وتطبيق هذا المبدأ يبدو فى عقد الزواج على وجه خاص . فالإسلام يحرم زواج المسلمة من غير المسلم . إذ هذا التحريم سيحفظ المجتمع الإسلامى ويصونه من الذوبان فى مجتمع آخر عن طريق زواج المسلمة بغير المسلم وتناسلها منه . وليس هذا أمراً عنصرياً ، ولا مبدأ للتفريق ، وإنما هو أمر أراد به الإسلام أن يقى المجتمع الإسلامى من الانحدار ، وأن يصون القيم الإسلامية من الانخفاض والانحطاط عن طريق خضوع المسلمة لغير المسلم فى عقد الزواج .

وهنا يصح أن تقول أن المجتمع الإسلامى هو مجتمع إنسانى بمعنى الكلمة ، وأنه مع ذلك يحتفظ بشخصيته واستقلاله . والعالمية الصهيونية التى يتزعمها كثير من المفكرين لا تلقى ترحيباً كبيراً فى رأى الإسلام . إذ أخص أهداف هذه العالمية الصهيونية هو نزع خصائص كل مجتمع وإلغاؤها حتى تعيث الرأسمالية والعالمية الصهيونية فساداً فى الإنسانية دون أن يكون هناك تذمر ، ودون أن يكون هناك صوت يرتفع ضد هؤلاء أو يبين أن أصحاب السيادة فى المال وأصحاب العالمية الصهيونية أجانب عن الوطن ، أي وطن .

وهنا يكون الإيمان برسالة الرسول عليه الصلاة والسلام ـ كما ذكرنا ـ باتباع هذه الخطوط العامة ، باتباع هذه الحدود فى معاملة الإنسان لنفسه وفى معاملته لغيره . والمجتمع ما هو إلا إنسان وغيره ، فرد وفرد . ومن هنا تتضح قيمة الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم وبرسالته ويتضح أثرها فى تكوين وتوجيه الخلقية الدينية .

إن الإيمان بالجزاء الأخروى ـ كما ذكرنا ـ باعث الحيوية فى هذه الخلقية . هو العامل فى استمرار حركتها نحو أهدافها . لأن المعتقد بالله وبرسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ـ إذا اعتقد إلى جانب ذلك فى الجزاء الأخروى ـ يذكر فى كل لحظة أن الجزاء واقع لا محالة ، وأنه من أجل ذلك لا بد أن يعمل فى كل لحظة ، وفى كل تصرف ، طبقا لما جاءت به الرسالة . ولذلك شدد الإسلام كثيراً فى النكران على من جحد اليوم الآخر وما يقع فيه من جزاء : « ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً » . « وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر » ؟ « إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون » .

حقيقة ، الإسلام لم يذكر هذه الخلقية الدينية بصريح العبارة، ولم يطلبها بهذا التحديد وهذا النص . وإنما طلبها فى صورة العمل الصالح . لأن العمل الصالح هو نتيجتها وثمرتها . يقول الله سبحانه وتعالى « ومن يعمل

من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما » . « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فألئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً » . « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم » .

وإذا تحققت هذه الخلقية الدينية ، وتحققت آثارها طبقا للإيمان برسالة الإسلام — كما صورنا — فإن المجتمع الإسلامى عندئذ لا يواجه مشاكل يطلب حلها . لأن هذه الخلقية نفسها إذا كانت قوية فى الدفع إلى العمل الصالح فإنها تكون وقاية من وقوع المشاكل . إذ مشاكل أى مجتمع إنما تنشأ عن النفرة ، إنما تنشأ عن عدم الاستقامة فى التصرف وعدم التعاون والتوازن ، إنما تنشأ عندما تخفت روح التعاطف وتتغلب الأنانية فتفسد بين الناس . عندئذ يواجه المجتمع مشاكل : الفرد يواجه مشاكل مع نفسه ومع غيره ، والأسرة تواجه مشاكل فى علاقة أفرادها بعضهم ببعض ، والأزواج والزوجات يواجهون — مشاكل فى علاقاتهم . وهكذا وهلم جرا .

ولذلك لم تكن تعاليم الإسلام التى يجب الإيمان بها عبارة عن حل أو حلول لمشاكل . وإنما كانت أولا وقبل كل شيء وقاية من المشاكل . ومن هنا كان شعار المجتمع الإسلامى هو : الوقاية قبل العلاج .

وإذا تحدثنا عن الخلقية الدينية أو الضمير الدينى فى المجتمع الإسلامى ووازنا بينها وبين القانون الوضعى وسلطته التنفيذية فى توجيه المجتمع

ودفعه إلى الاستقامة فى السلوك وحسن المعاملة ـ فإنا لا نريد أن نحط من قيمة القوة التنفيذية والرقابة العامة فى المجتمع . لا نريد أن نحط من قيمة هذا . ذلك لأن المجتمع ، مهما استقام أفراده ، سيبقى فيه نزاعون إلى الشر والإفساد والعبث ، بل إن من أفراده من يكون متحديا للقيم الأخلاقية الفاضلة ، وللمثل العليا ، وللاستقامة ، ولصالح المجتمع العام ، ولو قلة . وربما تضعف هذه القوة الخلقية يوما ما فيكثر الفساد والعبث إذا لم يكن هناك سلطة تنفيذية ورقابة عامة على المجتمع . والإسلام من أجل هذا لا ينكر قيام مثل هذه السلطة ، ولا وجود مثل هذه الرقابة وإنما يطلبها وينشدها لأن طبيعة الإنسان هى طبيعة الإنسان : فيها البر والفاجر وفيها المستقيم وغير المستقيم . وقد سار المجتمع الإسلامى منذ بداية تكوينه فى المدينة على أن تكون هناك رقابة ، وأن تكون هناك سلطة تنفيذية . وقد كانت درة عمر رمزا لهذه السلطة التنفيذية وهذه الرقابة العامة .

وكل ما أردناه من حديثنا عن الخلقية الدينية ، وتأكيدنا لقيامها وضرورتها إذن هو أن يحرص المجتمع الإسلامى أو أى مجتمع آخر على وجود هذه القوة فيه ، وعلى بقائها ورعايتها . لأنه من صالح المجتمع ـ كما ذكرنا ـ أن يقاد أفراده عن طريق الدفع الذاتى بدلا من أن يقاد جميع الأفراد عن طريق القانون وسلطته التنفيذية .

الاحتفاظ بشخصية المجتمع وصيانته من الاعتداء عليه :

هذان ـ الوحدة فى الإيمان بالله ، والخلقية الدينية ـ عاملان فى تكوين

المجتمع الاسلامى وفى بقائه وتماسكه . وهناك عامل آخر للاحتفاظ بشخصية المجتمع الاسلامى وصيانته من الاعتداء عليه من خارجه . هذا العامل هو الجهاد فى سبيل الله . وأعتقد أن كلمة « الجهادية » مشتقة من هذا الجهاد فى سبيل الله . كما أعتقد أن الاستعمار هو الذى بغض معناها للنفوس بسبب تلك الإساءات والحماقات التى كان يرتكبها فى معاملة المجندين والعسكريين أيام الاستعمار .

مبدأ الجهاد قصد منه الإسلام أمرين : الأمر الأول أن يبقى المجتمع الإسلامى على إسلامه وعلى أيدولوجيته ونظامه . الأمر الثانى هو صيانة النظام الإسلامى وصيانة أيدولوجيته من اعتداء العدو الخارجى عليه ، وهذا العدو الخارجى هو ذلك الذى يكفر بهذه الأيدولوجية ويمعن فى كفرانه بها ويسخر منها . « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء » « وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً » . « وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه . قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون » . وهذا العدو إذ يتنكر على المجتمع الإسلامى أيدولوجيته ونظامه ينكر فى واقع الأمر وجوده وقيامه ، ويبغى تفتيته وذوبانه فى مجتمعات أخرى . والجهاد . وهو الدفاع عن هذه القيم وصيانتها من الاعتداء عليها ، قد يكون أدبياً للرد على ما يوجه إلى هذه القيم من إنكار أو استهتار « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » . وليس المراد هنا القتال بالسيف وإنما الغرض هو مقاومة الاستهتار والاستخفاف بالقيم

الإسلامية حتى لا تكون فتنة بين المسلمين بسبب هذا الإنكار والاستخفاف والاستهتار ، وحتى لا يكون هناك خوف أو اضطراب أو بلبلة بسبب هذا الهجوم الانكارى على القيم الإسلامية . وقد يكون الجهاد - وهو ما عرف به - مادياً ، وهو اللقاء بالسيف والمدفع وبآلة الحرب ، ولكن لرد الاعتداء المادى بشىء من نوعه . ولو استعرضنا آيات القتال فى القرآن لوجدنا أن الله سبحانه وتعالى لم يطلب من المجتمع الإسلامى فى وقت من الأوقات أن يبدأ القتال والعدوان ، وإنما كل الذى طلبه هو رد الاعتداء « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » . وكان الإسلام محسناً ، وكان إنسانياً أيضا فى طلبه رد الاعتداء بالمثل « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم . واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » .

فى الوقت الذى طلب فيه الإسلام رد الاعتداء بالمثل علل طلبه بأن التزام ذلك هو من ضروب التقوى وذكر أن الله مع المتقين ، أى الملتزمين حدود الله .

مجتمع الثورة المعاصرة :

ويمكننا أن نخلص من هذا إلى أن المجتمع الإسلامى هو مجتمع تعززى . ومجتمع تعاونى ، ومجتمع متوازن متعادل ، (أو بالإصطلاح الحديث هو مجتمع اشتراكى) . مجتمع يحرص على استقلاله وحفظ كيانه وصيانة وجوده .

ومجتمعنا المعاصر ، وهو مجتمع الثورة المصرية المباركة ، مجتمع له هذه الأهداف ، وله هذه القيم . فهو مجتمع تحررى اتجه إلى التحرير والتحرر من مذلة الاستعمار الأدبى والتوجيهى والاقتصادى والسياسى، ومجتمع تعاونى قصد إلى الترابط عن طريق الأخاء والمعاونة الإنسانية الكريمة ، ومجتمع متوازن متعادل ؛ مجتمع اشتراكى . ثم أخيرا هو مجتمع يحرص على صيانة وجوده وعلى بقائه . فالأهداف واحدة والغايات متحدة .

وما دعا إليه الإسلام من إيمان بالله وحده ، ومن خلقية دينية ، ومن جهاد فى سبيل الله ، يجب أن يكون من الحوافز أو من العوامل التى تساعد على نمو مجتمع ثورتنا المعاصرة المباركة . بل انه من العوامل القوية فى هذا السبيل .

وهذه الكلمات الخالدة من رئيس هذه الثورة المباركة : « نسالم من يسالمنا » ، (وان جنحوا للسلم فاجنح لها) ، « ونعادى من يعادينا » . (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) ، « وديمقراطية تعاونية اشتراكية » — هى تعبيرات عن تلك الأهداف التى رسمها الإسلامُ للمجتمع الإسلامى والتى جعل من عوامل بقائها وصيانتها — كما ذكرنا — :

(ا) الإيمان بالله وحده .

(ب) والخلقية الدينية أو الضمير الدينى .

(ج) والجهاد فى سبيل الله ،